الرّي والارواء في كربلاء

مشروع نهر الحسينية ـ إنموذجاً ـ طبقاً لجريدة الزوراء العراقية

الأستاذ الدكتور المتمرس

طارق نافع الحمداني

جامعة بغداد - كلية التربية ابن رشد للعلوم الانسانية

Irrigation in karbala

AL-Hussianiyya River Project: according to Al-Zawra newspaper

prof. Dr. Tariq. N. al-Hamdani

University Baghdad - college of Education Ibn Rushd

Abstract

Karbala never witnessed the boon of water during many centuries of its history. Since the foundation of the city, and the "Martyrdom" of Imam al-Hussain, and its people, how usually depended on wells.

Although some project were done for digging and bringing water to karbala, since the 14th to 19th centuries, but this efforts never ended the problem.

Therefore, the Ottoman government was obliged to resolve this problem, and bringing water to karbalam at the end of the 19th century.

The sources of this subject is so rare, therefore, we depended of al-zawra, newspaper, which was the most important historical item, after Ottoman documents, that it composed the main material for this study.

الرّي والارواء في كربلاء

مشروع نهر الحسينية ـ أُنموذجاً ـ طبقاً لجريدة الزوراء العراقية

الأستاذ المتمرس الدكتور

طارق نافع الحمداني

جامعة بغداد - كلية التربية ابن رشد للعلوم الانسانية

الملخص

لم ترَ كربلاء نعمة الماء طوال قرون عديدة في تاريخها، فمنذ أن نشأت المدينة، واستشهدَ الإمام الحسين عليه السلام فيها، كان الماء مشكلة لها، اذ لم تنعم به الا قليلاً، ثم يقل الماء عن الانسان والنبات، ليلجأ الناس إلى وسائل بسيطة في حفر الآبار، لسد حاجاتهم في الرّي والارواء. على ان بعض المشاريع التي وضعت لتجاوز هذه الحالة قد وصفت ما بين حقبة وأخرى، ولكن الترسبات والفيضانات سرعان ما تحول تلك المشاريع إلى نقمة لا نعمة. فمشروع (النهر الفازاني) في القرن الرابع عشر سرعان ما اندرس، لتبدأ كربلاء المقدسة في معاناتها من الماء، ولم يدر بخلد الحكومات الاجنبية التي حكمت العراق ما بين القرون المذكورة اعلاه، والعقد الثالث من القرن السادس عشر الميلادي، أن تشق مشروعاً جديداً لارواء كربلاء المقدسة، الا زمن السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦)، حيث شق ما يسمى بـ(النهر السليماني)، الذي عرف (بنهر الحسينية) فيما بعد، وحتى وقتنا الحاضر. ومع ما في هذا المشروع من فوائد كبيرة لكربلاء المقدسة، الا انه بمرور الزمن تعرض هذا المشروع لكثير من عوامل الترسبات، منذ إنشائه في القرن السادس عشر وحتى اواخر القرن التاسع عشر، حيث بدأ العمل الجدّي بإحياء هذا المشروع الحيوي وتطهيره.

إن مصادر هذا المشروع قليلة ما بين القرن ١٦ -١٩، إلا أن جريدة (الزوراء) العراقية كانت خير معين لنا، لكونها قد غطت العمليات المصاحبة للبدء بهذا المشروع وحتى افتتاحه، وهي معلومات لا نجدها في أي مصدر تاريخي أخر، وعليها كان المعوَّل في بناء هذا الموضوع بالدرجة الأولى.

أولاً: جريدة الزوراء وثيقة تاريخية مهمة لتأريخ العراق

يتحرى الباحثون المتخصصون دائماً عن المصادر الجديدة للوصول إلى المعلومات التي تخص هذه القضية أو تلك، لاسيما القضايا التي عالجها الباحثون بصورة سطحية دون أن يتعمقوا في مصادرها، وبذا لم يضيفوا إلى هذه القضايا أيّ جديد.

ونحن نبحث في المصادر وقع اهتمامنا على «جريدة الزوراء» العراقية، لتكون مصدراً جديداً لدراسة «مشروع نهر الحسينية»، الذي لم نجد له الاّ ذكراً قليلاً في المصادر المعروفة عن كربلاء المقدسة، لاسيما وأن هذا المشروع الحيوي كان يسبب قلقاً متزايداً لمدينة كربلاء المقدسة، وذلك في حالتي الجفاف والفيضان، وهذا ما يجعل سكان مدينة كربلاء حيارى في حائرها بين المحل والطغيان، فكما يقول لونكريك:

((إذ كان الربيع الفائض في الربيع يغمر الوهاد التي حول المدينة بأجمعها من دون أن تسلم منه العتبات نفسها. وعند هبوط النهر كان عشرات الألوف من الزوار يعتمدون على الرّي من آبار قذرة شحيحة))[1].

ولا تقل مأساوية هذه الحالة، عما نقله لنا مؤلف آخر زار كربلاء عام١٩١١م، إذ قال:

((ونهر الحسينية ماؤه عذب فرات ومنه يشرب السكان، الا ان ماءه ينضب في القيظ فتحرج الصدور، وتضيق النفوس ويغلو ثمن الماء، فيضطر أغلبهم إلى حفر الآبار وشرب مياهها، وهي دون ماء الحسينية عذوبة، فتتولد الأمراض وتفشو بينهم فشوا ذريعاً كالحميات والأدواء الوافدة))[2].

وعليه، كان مشروع نهر الحسينية مما يثير القلق في كربلاء المقدسة على مرّ العصور، ويدعو الناس لمناداة القائمين عليه في حفر النهر وحفظ مياهه طول السنة.

ومع أن جريدة الزوراء تحوي بين طياتها الكثير من المعلومات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إلا أننا في بحثنا هذا قد ركزنا على ما ذكرته هذه الجريدة عن «مشروع نهر الحسينية»، سواء من حيث الأحداث المتعلقة بهذا المشروع، أو من حيث تطويره، والجهود التي بذلت لحفره وحماية مياهه من الفيضانات في بعض المواسم.

ومع أن جريدة الزوراء قد تمثل وجهة النظر العثمانية في أخبارها وبياناتها، إلا أن ما يميزها أنها كانت تستمد مادتها من التقارير العديدة التي تصل إلى الجريدة، من مراسليها الصحفيين المنتشرين في المدن الرئيسة، الذين كان عليهم تحرير الحوادث والوقائع التي تحصل في أماكن وجودهم، وهو عمل كان يتوقف عليه نجاح الجريدة واستمرارها[3].

بينت الزوراء، أن شأنها شأن الجرائد الأخرى، لها مراسلون في الأماكن التي ترى بها لزوماً، حيث أن مراسيلها هم مدراء التحرير في الألوية وكتابها في الأقضية والنواحي التابعة للولاية[4]، وأوضحت الجريدة: ((أن هؤلاء المراسلين مكلفون بتحرير الأخبار المهمة لا أن يحرروا كل شيء سمعوه

أو تخيلوه من مدح أو ذم شخص معين حسب أهوائهم، وليسوا مكلفين بإفراغ الحوادث التي تحدث في أماكن تواجدهم في صيغ بلاغية متنوعة، ويلزمهم عدم حشو أوراقهم وكتاباتهم بما ليس فيه نفع أو فائدة))[٥].

وهكذا نجد أن إدارة الجريدة كانت تلزم محرريها الصحفيين بتحرير ما يجب تحريره للجريدة وفقاً للصيغ التي وضعتها. ولا ننسى أن بعضاً من العراقيين قد عملوا محررين في هذه الجريدة، ففي ١٤ نيسان عام ١٨٩٠م تم تعيين الشاعر جميل صدقي الزهاوي مديراً لمطبعة الولاية ومحرراً للجريدة بقسميها العربي والتركي ولغاية تموز سنة ١٩٠١م حيث جرى تعيين الكاتب الصحفي فهمي عبد الرحمن المدرس رئيساً للتحرير. أما في ٧ شباط سنة ١٩٠٥م فتولى رئاسة تحريرها الشاعر المعروف معروف الرصافي[٦].

ظهر العدد الأول من جريدة الزوراء في يوم الثلاثاء ١٥ حزيران سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م، وباللغتين العربية والتركية، واستمرت تصدر بانتظام لمدة تسع وأربعين عاماً حتى عام ١٩١٧م، فكان مجموع ما صدر منها ألفان وستمائة وسبعة أعداد[٧].

وهكذا يظهر لنا حجم المادة التاريخية التي تضمها (جريدة الزوراء) عن العراق بصورة عامة، وعن كربلاء بصفة خاصة، وهذا ما سيتم تناوله في هذا البحث.

ثانياً: مشروع نهر الحسينية

(إنشاؤه والعقبات التي واجهته ما بين القرن ١٦ـ٢٠ ميلادي)

لم يكن ما واجهه العراق قليلاً منذ تعرضه لغزوات الأقوام الأجنبية بعد سقوط بغداد على يد المغول عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، ولم تسلم من تلك الغزوات حتى مشاريع الرّي والإرواء، يحدثنا لونكريك[٨] عن ذلك فيقول:

((وكانت أعظم الأعمال التهديمية التي ارتكبها هولاكو هو التخريب المتقن في السدود والأنهار ونواظم الاسقاء التي كان تشييدها المحكم منذ القدم المنبع الوحيد للثروة في البلاد. وقد تعذر القيام بإصلاح تلك التخريبات بسبب استمرار الاضطراب في البلاد وفقدان روح العمل ممن بقوا أحياءاً من السكان القليلين بعد تلك المذابح والتخريبات الهائلة، وهو الأمر الذي أدى إلى إهمال الأنهار وتردي الحالة في مجاريها بتراكم الغرين وتكاثر الطمي بحيث غدت الأنهر مطمورة لا تستوعب الماء الكافي ولا يمكن ضبطها عند الطغيان)).

لم يكن من الممكن ان تستعاد الحالة إلى سابق عهدها في البلاد الا القيام بمشاريع ضخمة لتنظيم الأمور المضطربة التي مرّ بها العراق بعامة وكربلاء بخاصة، في القرون التالية. ولعل مما يبشر بالخير أن امتدت يد الإصلاح إلى بعض الجوانب في هذه البلدة المقدسة. وكان السلطان غازان بن أرغون الإيلخاني أول من أمر بحفر نهر عظيم من

فرات الحلة، على بعد ١١ كم شمال مدينة المسيب، ودفع الماء به إلى سهل كربلاء المقُفر، وسمي بالنهر (الغازاني الأعلى)، وذلك عام ١٣٢٧م[٩].

ويجب أن لا ننسى ان المؤرخ العراقي الغياثي[١٠] يعد أول من أورد ذكراً لهذا النهر فقال:

((ومن آثاره (أي غازان) نهر أخرجه من الفرات ما بين دجلة وبغداد، وعمل عليها كثيراً من العمارة وسمي (بالنهر الغازاني) وشق من الفرات النهر إلى مشهد الشيخ أبي الوفاء))[١١].

وكانت كربلاء قبل مدّ هذا النهر صحراءاً قاحلة لا أثر للزرع والضرع فيها، حتى أنه لا يوجد في المشهد الحائري كله ماء حلو للشرب، فصار الماء الحلو يفيض بخيراته على العباد والبلاد[١٢].

بقيت الحالة هذه قروناً ثم تراكمت الرمال والترسبات، فقلت كمية الماء وعادت مشكلة الظمأ صيفاً والفيضانات ربيعاً، ولذا كان على الناس أن يعتمدوا على الرّي من آبار شحيحة مرة أخرى[١٣]؛ وقد قدر للسلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م)، أن يعيد توسيع القناة وتعميقها، بقصد إيصال الماء إلى مدينة كربلاء المقدسة وسقي أراضيها، وتنظيمها بشكل يجعل الماء متدفقاً فيها بصورة مستمرة[١٤].

لم تكن الأعمال الإصلاحية التي قام بها السلطان سليمان بعيدة عن روح الصراع العثماني- الصفوي. فلطالما قام الصفويون من قبله بأعمال إصلاحية في العراق، وفي المدن المقدسة بالذات، لذا لم يتوانَ السلطان سليمان عن زيارة تلك المدن في بغداد وفي النجف وكربلاء، وان يفعل أكثر مما فعله الحكام الصفويون من قبله، فكان أن حظيت مدينة كربلاء بشق «النهر السليماني»، الذي عرف باسمه[١٥]. وعرف بعده بـ(نهر الحسينية)، الذي ما يزال يروي أراضي كربلاء المقدسة إلى يومنا هذا[١٦]. وفي سياق ذكرها إلى هذا المشروع أشارت جريدة الزوراء إليه بالقول:

((وهذا النهر مشهور هنا وهو من جملة آثار السلطان سليمان بن السلطان سليم، ويعد من الأدلة على ذلك نسبة الشريفة السليمانية الواقعة فوقه وتسميتها الجليلة))[١٧].

وفي تلك الآونة كانت أطراف مدينة كربلاء المقدسة تتعرض لفيضانات نهر الفرات المتكررة في فصل الربيع بينما يؤدي انخفاض مستوى المياه في النهر إلى جعل أهالي المدينة يلجأون إلى مياه الآبار لري محاصيلهم، إلى أن نُفِذَ على يد السلطان سليمان إذ أنه أمر برفع (روف «سدة» السليمانية) لوقاية المدينة من الفيضان، وهو يمتد إلى شمال غربي قرية السليمانية، الواقعة على طريق طويريج - كربلاء، على بعد ثمانية كيلومترات من شرقي كربلاء. وعلاوة على ذلك، - كما يقول لونكريك - فقد وسع هذه الترعة وزاد في عمقها لكي تأتي بالماء باستمرار، ولأجل أن تجعل الأراضي الخالية المغبرة حولها بساتين وحقول قمح، وصارت هذه الترعة تنساب في أرض كان الجميع يظنونها أعلى من النهر الأصلي، فاستبشر الجميع للمعجزة[١٨].

على أن التفاوت كان كبيراً بين وجهة نظر

المؤرخين حول هذا المشروع. فلونكريك مثلاً، اعتمد في معلوماته أعلاه على مرتضى أفندي، وكتابه القيم المعروف باسم «كلشن خلفا»، الذي عدّ المشروع بـ(المعجزة)، وتابعه في ذلك معظم المؤرخين المحدثين. وهذا ما ذكره مرتضى أفندي:

ومما ذكره المؤرخون أن المهندسين وذوي الخبرة كانوا قد قرروا بعدم إمكان إيصال الماء إلى قصبة كربلاء من نهر الفرات، ولكن بكرامة الإمام الهمام، ويمن إقبال السلطان، جرى النهر، وانكشف كذب أقوال أولئك الذين قرروا استحالة ذلك[١٩].

فلا غرابة أن لونكريك، الذي جارى مرتضى أفندي في معلوماته، قد أعطى لهذه الحادثة بعداً دينياً أيضاً، فقال: فاستبشر الجميع للمعجزة واقتسم الحسين الشهيد والسلطان التركي جميع الثناء والإعجاب[٢٠].

ومهما يكن من أمر، فقد وقف الأستاذ عباس العزاوي[٢١] وقفة طويلة على ما ذكره مرتضى أفندي، واعتبر ما ذكره دليلاً على اهتمام السلطان سليمان بهذا المشروع وانجازه له. وهو ما يجعلني أميل كل الميل إلى قول العزاوي:

((واعتقد ان السلطان [سليمان] كان يملك أكابر المهندسين فتمكن من العمل. وتم المشروع على يده. ويقال ان هندسته كانت فائقة تدل على خبرة ومقدرة ممن أحضرهم من المهندسين، ولا شك انه كان أقرب لاستخدام أعاظم المهندسين وهو من أعظم الملوك، وليس لدينا ما يوضح الأعمال الهندسية ووصف خطورة المشروع والخطط التي قام بها رجاله ولا علمنا من هؤلاء المهندسين، إلا أن الأعمال تنسب إلى السلطان وحده، والنهر بوضعه شاهد العظمة))[٢٢].

وعلى هذا كله، فقد كان للسلطان سليمان فضل كبير في شق هذا المشروع، الذي أسدى به خدمة جليلة لمدينة كربلاء المقدسة، إذ سقى هذا النهر العطاشى من سكانها، ووصلت مياهه إلى الأراضي المجدبة في كربلاء وما حولها من بقاع، فكان بحق من المشاريع الإصلاحية آنذاك.

وليس هذا فحسب، فقد أثنى المؤرخون على مشروع نهر الحسينية (السليماني)، بل إنه كان دافعاً لمشاريع أخرى مماثلة. فمرتضى أفندي مثلاً يقول:

((وفي الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة ٩٤١هـ[١٥٣٤م] سافر السلطان سليمان إلى كربلاء والنجف الأشرف وحَضِيَ بالمثول بين يدي حضرة سيد الشهداء، وأمر بشق نهر كبير من الفرات وأوصله إلى كربلاء وجعلها كالفردوس، الأمر الذي زاد من محصولاتها وأثمار أشجارها وانعم على الخدمة والسكان))[٢٣].

وفي عريضة لوالي بغداد سنان باشا (نصب والياً سنة ٩٩٥هـ/ ١٥٨٦م)، مرفوعة إلى السلطان مراد الثالث المتوفى في سنة ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٤م، أشار فيها إلى مأثرة السلطان سليمان في حفره لنهر الحسينية الذي أوصله إلى كربلاء فأحياها به، وأحيى الأراضي التي اجتاز بها النهر، وشكا إليه ما يقاسيه أهل النجف من قلة ماء الشرب وشرائهم الحملة منة بخمس أو ست بارات، ما جعلهم يضطرون إلى الجلاء عن مدينتهم[٢٤].

وفي السياق نفسه، أوردت لنا جريدة الزوراء، أهمية مشروع نهر الحسينية بقولها:

((وأما ما يسقيه هذا النهر من الحدائق والمزارع فهي كثيرة جداً، ولاسيما إرواؤه عطشى كربلاء))[٢٥].

ظل مشروع نهر الحسينية قائماً ويروي مدينة كربلاء وأراضيها الزراعية، ولم ترد أي معلومات عن عقبات اعترضت مسيرته ما بين تاريخ إنشائه في ثلاثينات القرن السادس عشر ومطلع القرن التاسع عشر.

إلا أنه من الواضح أن عاديات الزمن قد فعلت فعلتها في هذا المشروع الاروائي الكبير، إذ أدت الترسبات والطمى إلى خلق مشكلة في مشروع نهر الحسينية، بحيث إنه في عام ١٢١٧هـ/ ١٨٠٥م شق نهر الفرات (فرع الحلة) إلى فرعين أحدهما يجري مستقيماً وسمي بـ(نهر الهندية)، والثاني بُدِّل مجراه من جنوب المسيب باتجاه نهر السلطان سليمان إلى كربلاء، وعرف بـ(نهر الحسينية)، كما هو في يومنا هذا[٢٦].

ويمكن رصد هذه الحالة فيما ذكره أبو طالب خان برحلته عام (١٢١٨هـ/ ١٨٠٦م)، إذ عندما أراد أن يقيس عرض شط الهندية وهو في طريقه من كربلاء إلى الحلة ليقصد النجف الأشرف قال:

((وعندما أتممت واجبات زيارتي بكربلاء سافرت إلى النجف على طريق الحلة، فوصلت إليها في اليوم بعينه، وفي هذه المدينة الأخيرة التي هي على مسافة ستة عشر فرسخاً رأيت في طريقي قناتين، الأولى تُسمَّى النهر الحسيني (نهر الحسينية)، وكان السلطان سليمان[٢٧] أمر بحفرها لأجراء الماء الفرات إلى كربلاء، والثانية تُسمَّى (نهر الهندية)[٢٨] أو الآصفي... وهو أعرض من النهر الحسيني[٢٩].

وفي رحلة أبي طالب خان، الترجمة الفارسية نجد معلومات أخرى عن نهر الحسينية، إذ جاء فيها:

((هو (أي نهر الهندية) على غرار نهر الحسينية- الاسم الذي يعرف به اليوم مع ما طرأ على عدوتيه من تغيير وتبديل، وهو اليوم عين النهر الموجود يروي ضياع كربلاء وبساتين كربلاء باسم نهر الحسينية. كان منفذه الرئيسي ينتهي إلى هور السليمانية الواقع في القسم الشرقي من البلاد، على مسافة بضعة أميال، والفرع الذي اختص لإرواء السكنة والمجاورين كان يطوق المدينة من ثلاث جهات[٣٠]، حيث الشمال والغرب ثم ينعطف نحو الجنوب ويتجه شرقاً حتى يصل منفذه الرئيس في هور السليمانية))[٣١].

لا تتوفر لدينا معلومات عن وضع نهر الحسينية لعقود طويلة، إلا أن هناك إشارات متفرقة عن صعوبات واجهت مجرى النهر بسبب عدم كريه بصورة مستمرة وتراكم الطين والغرين والصيرورة إلى جفافه، ولجوء الناس إلى شرب مياه الآبار[٣٢].

وحدث في أثناء ذلك أن زار الرحالة الهولندي آينهولت المنطقة عام ١٨٦٧م، فوجد الترسبات والأفرع المندرسة، مما أدى إلى حدوث فيضان عندئذ. فيقول:

((وعند مغادرتي من الكوفة إلى كربلاء بسفرة مائية، وجدت بقايا الترع المندرسة والغدران والبحيرات الصغيرة التي تحفظ مياه الفرات الفائضة بين الحين والحين... ولكن في شهر نيسان ١٨٦٧م بلغ في فيضان النهر الهائل أن غدا السهل الواقع على الجانب الأيمن قطعة عظيمة من الماء يغمر الأرض والقنوات والأنهر والبحيرات والمستنقعات))[٣٣].

ولكن الوضع كان على شاكلة أخرى عند زيارة ناصر الدين شاه للعراق عام ١٨٧٠م، إذ يقول:

((تحركنا من المسيب إلى كربلاء، وقطعنا جسر نهر الحسينية الذي يصب في كربلاء، وكان فيه ماء وافر، وهو يتفرع من نهر الفرات، وقد شقه السلطان الرومي سليمان))[٣٤].

وفي موضع آخر يقول:

((ووصلنا إلى بداية بساتين كربلاء، وعبرنا الجسر المعروف بالجسر الأبيض (الكنطرة البيضة حالياً) الموضوع على نهر الحسينية.

يقع نهر الحسينية على اليمين، وعلى نحو مسافة خمسين قدماً من نهر الحسينية رافد يسقي الزروع من النخيل وغيرها الموجودة على جهة اليسار))[٣٥].

ومع ذلك كله، فإن هذا لا يعني أن نهر الحسينية لم يكن بعيداً عن الانقطاعات، أو الفيضانات، بدليل أننا نرى منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى، عدة حالات انقطع فيها مجرى نهر الحسينية، أو فاضت مياهه[٣٦]، وهذا ما كان مدعاة لتدخل الولاة العثمانيين في العراق، وهو ما كان أصل الموضوع الذي ندرسه وفقاً لجريدة الزوراء العراقية.

ثالثاً: حفر نهر الحسينية وفقاً لجريدة الزوراء العراقية

تابعت جريدة الزوراء أخبار مشروع نهر الحسينية أولاً بأول، سواء مما سمعته من أخبار رسمية، أو مما كان يزودها به المراسلون، ففي عددها المرقم (٧٩٣) نقلت لنا الزوراء التلغراف الصادر من متصرفية كربلاء إلى ولاية بغداد، بشأن انقطاع نهر الحسينية منذ شهرين، مما اضطر الأهالي على شرب ماء الآبار، فأخذت الحكومة بعض التدابير لإيصال الماء إلى كربلاء[٣٧].

وتعقيباً على التلغراف السابق، فقد ورد تلغراف لاحق لمتابعة إجراءات الحكومة بشأن انقطاع نهر الحسينية، إذ جاء فيه: ((كنا كتبنا أن حفريات نهر الحسينية صارت تجري في الاهتمام، وانتظرنا من مخبرنا في كربلاء معلومات دائرة على العمليات الحفرية وسائر الأخبار. ولم تُعطَ إلى الآن من المخبر المومى إليه معلومات، لكن سمعنا بأنه عرف من متصرفية كربلاء إلى الولاية الجليلة بأن حفر النهر المذكور بلغ حد الختام))[٣٨].

لم يكن انقطاع نهر الحسينية بالأمر السهل، فبالإضافة إلى الضرر الكبير الذي يسببه للبساتين والمزروعات والمواشي، إلا أن الحالة لا تطاق عندما لا يجد سكان مدينة كربلاء، بمن فيهم الزوار، الماء لشربهم، وهذه الحالة هي التي وصفها مخبر الزوراء بقوله: ((ان نهر الحسينية هذا بمثابة ماء

الحياة (كذا) لكثير من عباد الله، على أنه ليس لهؤلاء فقط وإنما يلزم أن تضم الحيوانات والمواشي أيضاً على الحساب مع النفوس الكثيرة الموجودة، التي تزيد على الخمسين أو الستين ألفاً، علاوة على كثرة الزوار والمترددين، فالذي يسقي هؤلاء والعدد الكثير من المزارع والبساتين الموجودة في هذه الأطراف ويرويها أي الذي يربي جميعهم ويكفل محافظة حياتهم هو هذا النهر. وهو وأن كان ماؤه يقل أوقات الصيهود لكنه لا ييبس بالكلية كما في هذه السنة (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م).

فإن ماءه انقطع بالكلية فجعل كربلاء محرومة من الماء اللذيذ الفرات منذ ابتداء تموز الذي هو أشد زمان حرارة الصيف. وأما ماء الآبار الذي صار الأهالي مجبورين على شربه فهو ملح أجاج، وصادف هذا الحال شدة الحرارة. والأعظم من ذلك أن الزوار أيضاً تهاجموا إلى هنا بصورة فوق العادة لم تر أمثالها في كم سنة من السنين السابقة فكسب الماء صار ندرةً وقحطاً على العادة، فكان ذلك من الأسباب التي شددت اضطراب الخلق وكانت النفوس على درجة من الكثرة بحيث امتلأت خانات كربلاء ودورها وأسواقها بالناس والدواب، وكان التطواف في داخل القصبة يحصل بمشقة عظيمة حتى أن جميع البساتين التي في أطراف القصبة كسبت حال الخانات لأجل الزوار. فالمشقة التي قوسيت في تلك الأيام من أجل الماء أحدثت صورة أخرى فترقت قيمة القربة من ماء الآبار التي ذكرت أنها مُرّة مالحة إلى أربعة أو خمسة قروش. وما عدا ذلك فإن لون الماء أيضاً انتقل إلى حال آخر فصار يظن نوعاً من سائر المواد المايعة ولا يعرف من أول نظرة أنه ماء. ويرى أن أكثر الناس ينالون هذا بمشكلات.

ولما كان حال القصبة في هذا المركز أن البساتين المزينة بكل نوع من الأشجار والأثمار لم يبق حالها منحطاً عن هذا. ولا جرم عند أجراء الدقة على أحوال البساتين التي على حافتي الحسينية كان يظن ان كل غصن من الأشجار المتدلية وكل ورقة منها تبين المحزونية بلسان الحال من أجل مصيبة نهر الحسينية هذه، وتبادر بالافهام لحالها المشحون باخلال من شدة العطش وتسعى لإيصال ندائها التي تقول فيه واعطشاه إلى مسامع الناظرين، فالإنسان الذي قاسى المرارات والآلام من قحط الماء ومياه الآبار الكدرة المالحة، إذ يشاهد على هذا الوجه تأثير الحال العمومية البالغة بالدرجة المشروحة... ومع ما في هذا فأن إقدامات الحكومة الجدية وعلو همتها الاستثنائية هي التي انقذت هذه البلدة من احتياج عظيم كالماء))[٣٩].

بهذه الصورة نقلت لنا الزوراء عن طريق أحد مراسليها «مخبريها» الحالة الصعبة التي عاشتها كربلاء بانقطاع الماء عنها، فكيف حدثت حالة الانقطاع هذه، وما دور الحكومة في ذلك.

في التلغراف الصادر من متصرفية كربلاء إلى والي بغداد في الرابع عشر من شوال ١٢٩٩/ ١٨٨١، إشارة إلى انقطاع نهر الحسينية لمدة أربعين يوماً، فصار الأهالي مضطرين على شرب ماء الآبار، فحصلت أنواع الأمراض، وتضيف الزوراء قولها:

((وبناء على هذا رؤى حفر النهر المذكور وتطهيره وجلب الماء. وبموجب دفتر الكشف الذي أعطاه موزل أفندي المهندس فهم أن هذا يأتي إلى ساحة الوجود بأربعة مائة ألف وخمسة عشر ألف فحصل العود بهذه الكرة من الهندية إلى كربلاء، وقسمت المصارف المذكورة بمعرفة الجمعية التي شكلت على عموم البساتين والأراضي وبوشر بالحفريات وبهذه التشويقات المجراة تعهدت عشائر الهندية وأهاليها بأن يعاونوا في هذا الشغل مدة خمسة عشر يوماً بألف شخص عملية الحفر في اليوم مجاناً، وأبرزوا الغيرة والحمية في هذا الخصوص...»[٤٠].

أصبحت السلطات المسؤولة آنذاك أمام الأمر الواقع، فقد شكل والي بغداد لجنة من مهندس الري لوضع دراسة مفصلة ومقترحات عملية لمعالجة انقطاع نهر الحسينية، وكان لتلك الدراسة نتيجتها، إذ بوشر بأعمال الحفر والتطهير، واستمر ذلك مدة تقرب من ثلاثة أشهر، فكتبت جريدة الزوراء الآتي:

((والحسينية نهر جسيم فبلوغ حفرياته الختام بمدة شهرين أو ثلاثة أشهر دليل على أن الهمة صرفت بحقها في تسريع العمليات، وان ما دل على ختام الحفريات بهذه المدة من الغيرة بأي قدر ما يكون موجباً للممنونية. فإن فتح الصدر من الآن وأجراء الماء جالب للمسرة بذلك القدر لأن مجيء الماء هكذا يستلزم المنفعة بجهتين:

فأولاً إن أهالي قصبة كربلاء والخلق الذين يترددون إلى هناك لأجل الزيارة والتجارة من الأجانب وغيرهم كانوا باضطراب شديد من أجل الماء منذ انقطاع الماء من الحسينية، وكان الاضطراب في حال بحيث ان العطش الذي قاساه شهداء كربلاء تجدد في الخواطر بالفعل، وصارت كربلاء بمناسبة قحط الماء اللذيذ (كربا وبلاء) حقيقة، والماء الذي كان يؤتى به من الهور في أيام قليلة وهو حائز لاسم الماء الحلو صعدت قيمة القربة منه إلى البيشلك[٤١]، ثم أن ذاك أيضاً نفذ فلا تسل عن الأذى الذي تحمل ذاك الوقت فغير محتاج للملاحظة ان ماء الفرات اللذيذ، الفرات الذي يأتي من بعد هذه الأحوال كيف يكون ذات قيمة.

وثانياً إن هذا الوقت هو زمان المباشرة بالزراعة بالتمام فأن الزروع التي تسقيها الجداول التي على الحسينية ومعموريتها أيضاً معلومة، وبناء على ذلك أنه لمستدعي من الطاف الإلهية ان تكون حاصلات أنهار الحسينية في هذا الموسم آنت بل فوق المأمول فينبغي للزارع وأصحاب البساتين وسائر أفراد الأهالي والساكنين أن يعرفوا قدر الهمة التي لم تزل الحكومة تؤثرها في رفع كل نوع من الضائقة وقيمتها))[٤٢].

استبشر مراسلو الزوراء لإطلاق ماء نهر الحسينية، بعد انقطاع دام ثلاثة أو أربعة شهور، فكان لإطلاقه أثر كبير في نفوس الأهالي، الذين اصطفوا على ضفاف النهر لمشاهدة جريانه، فكتب أحدهم الآتي: ((أن حفر الحسينية قد حصل له الختام، ولذلك خلى سبيل مائها، فصار يجري على الوجه المطلوب، وان الخلق في مدة هذه الثلاثة أو

الأربعة أشهر التي انقطع فيها الماء عن هذا الطرف تأذوا من مياه الآبار. وصادف أيضاً ورود الزوار بهذه السنة مع الكثرة فشدد مضايقة الماء بعد، وأن كل أحد كان ينتظر ورود الماء الفرات بعين الحسرة، ولهذه الجهة قد حصل لدى جميع الأهالي فرح عظيم بمرتبة العيد الأكبر بناء على جريان النهر المذكور، واجتمع كل منهم الكبار والصغار على النهر لأجل التفرج بالنظر إلى الماء))[٤٣].

إن هذه الصورة المأساوية التي شهدتها كربلاء قد وصفها لنا مراسل آخر بقوله:

فإنه حري ولايق والله وأيضاً يلزم الوصف لزينة اليوم الذي أطلق فيه الماء فوصل القصبة، وذلك أنه في اليوم الذي هرع فيه جميع الناس لأجل التفرج وخرجوا إلى خارج البلدة قائلين هذه ماء الحسينية. ولا استطيع تعريف قدر الخلق الذين اجتمعوا على النهر من النساء والرجال والصبيان، وكان الماء جارياً بالتمام، وكذلك النفوس الكثيرة المجتمعة كانوا منتشرين يطوفون في كل جهة للتلذذ والفرح العظيم الذي حصل لهم بالنظر إلى الماء، وان المتصرف حضرة الباشا أيضاً سار لأجل النظر إلى الماء، الذي هو النتيجة النافعة والثمرة الباهرة لموفقيته، التي هي بمثابة الباعث لإحياء هكذا بلدة.. ورأيت أصحاب المعرفة هنا قد انشدوا قصائد وتواريخ كثرة، لأجل فتح النهر المذكور[٤٤].

على أن إنجاز حفر نهر الحسينية وتطهيره لم يكن ثمرة لجهود متصرف كربلاء فحسب بل كان لأهل البلدة دورهم في ذلك، إذ قالت الزوراء: ((والواقع ان أصل المسألة عبارة عن أن المساعي الجميلة التي صرفتها الحكومة بحق صارت بادية لتحريك الأهالي وتشويقهم، إلا أن فتوة الأهالي في هذا الباب مع هذا هي ليست من الأحوال القابلة للإنكار. إلا وأن إبرازهم الفتوة في هكذا شيء هو من أعاظم الأسباب الاحتياطية والحياتية، وأن كان لتسوية احتياجهم كيف يوجد في صنوف الخلق صنوف يتعللون حتى في تسوية احتياجاتهم الخصوصية فضلاً عن شيء عائد إلى العموم، والتعبير الأوضح إنهم يجعلون كل أحد يصدق بعدم مبالاتهم.

فبناء على ذلك ينبغي أن يوضع هذا القسم الآخر من الناس تجاه العين ليكون قدر ما أبرزه الأهالي المذكورين من الآثار الواردة على منهل الفتوة وقيمته قد زاد. والحاصل أنهم في هذا المسلك الخيري الذي التزمته الحكومة أعطوا ما يقتضي من المصاريف الحفرية مع السهولة ولم يمتنعوا عن المعاونة. هذا ولم يقض أن واحداً في استحضار كل ضرب من أسباب المساعي في الحفر والتطهير لمدة أحدى عشرة أو اثنتي عشرة ساعة من صدر النهر المذكور إلى بزايزه، فبناء على ذلك ان تزيين نتيجتها النافعة لساحة الشهود على هذا الوجه من دون مضي شهر ونصف كيف ما يعد موفقية كبيرة))[٤٥].

وبهذه الصورة نقلت لنا الزوراء، صورة حية عن معاناة أهل كربلاء بانقطاع نهر الحسينية، وبالجهود التي بذلت لحفره وتطهيره حكومة كانت أم أهلية حتى جرى الماء ليعيد النشاط والحياة إلى تلك المنطقة.

وهنا يجب بنا أن نتذكر بأن عملية حفر نهر الفرات وتطهيره، كان يصاحبها في بعض الأحيان، عملية فيضان النهر وجفافه، وفي ذلك تقول الزوراء:

((تزايد نهر الفرات وجاء الماء إلى نهر الحسينية فجرى فيه ارتفاع نصف ذراع وصار كل أحد مسروراً به، إلا أنه قل ونشف ونزل نهر الفرات، فعادت على الخلق حرارة التلهف والتأسف))[٤٦].

إن معلومات كهذه التي نقلتها الزوراء إنما هي معلومات توثيقية لشهود عيان وهم مراسلو جريدة الزوراء التي كانت وما تزال واحدة من أبرز مصادرنا عن تاريخ العراق الحديث بصورة عامة، وكربلاء وغيرها من المدن العراقية بصورة خاصة.

ومع أن الأسلوب الذي كتبت فيه نصوص جريدة الزوراء كانت ركيكاً في الكثير من الأحيان، إلا أن المادة التي حملتها تمثل مادة وثائقية لا نجد ما يماثلها في مصادرنا العربية.

الهوامش والمصادر

(١)ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، نقله إلى العربية جعفر الخياط، مطبعة المعارف بغداد، ١٩٦٨م، ص٣٩. وقد أورد الدكتور أحمد سوسة هذا النص أيضاً: وادي الفرات ومشروع سدة الهندية، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٤٥م، ج٢، ص٣٣٣.

(٢)عمانوئيل فتح الله عمانوئيل، سفرة إلى كربلاء والحلة ونواحيهما، مجلة لغة العرب، الجزء الرابع عن شوال سنة ١٣٢٩هـ/ تشرين أول سنة ١٩١١م، ص١٥٧؛ ينظر: إبراهيم حلمي العمر، مدينة كربلاء، مجلة المقتبس، المجلد السابع، الجزء العاشر ١٣٣٠= ١٩١٢، ص٧٥٥. ومما يذكره العمر أن الأشهر التي ينضب في اثنائها ماء الحسينية هي» حزيران، تموز، آب، أيلول.

(٣)كانت الجريدة تنشر هذه المواد تحت عنوان (مواد خصوصية)، أي أنها مواد خاصة بالجريدة ولم تستقها من مصدر آخر. عماد عبد السلام رؤوف، جريدة الزوراء مصدراً للبحث في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في الجزيرة العربية في أواخر العهد العثماني في كتاب: رحلة القائد العثماني السيد علي التركي إلى الجزيرة العربية سنة ١٥٥٣م، الدار العربية للموسوعات، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠١٠م-١٤٣٠هـ، ص١٩٨-١٩٩.

(٤)جريدة الزوراء، العدد ٣٢٠ لعام ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٣م.

(٥)المصدر نفسه، العدد ٤٩٧، لعام ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م.

(٦)منير بكر التكريتي، الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية من (١٨٦٩-١٩٢١م)، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٩م، ص١٩٠؛ ينظر أيضاً: جريدة المدى، ذاكرة عراقية، الزهاوي والرصافي رئيسان لتحرير جريدة الزوراء، العدد ٣٣٨٦، السنة الثانية عشرة، الاثنين (١٥) حزيران ٢٠١٥م، ص١٦.

(٧)إبراهيم خليل أحمد، جريدة الزوراء البغدادية مصدراً لتاريخ العراق الحديث ١٨٦٩م-١٩١٧م، في كتاب: بغداد في التاريخ، الندوة العلمية الأولى التي عقدها قسم التاريخ، كلية التربية الأولى، جامعة بغداد للفترة من ٥-٧ أيار ١٩٩٠م، ص٣٩٠.

(٨)ستيفن هيمسلي لونكريك، المصدر السابق، ص٢٧.

(٩)سمي النهر كذلك تمييزاً لنهرين آخرين حفرهما غازان أيضاً، وهما نهر ثاني من الحلة وأوصله إلى مشهد أبي الوفاء، وسمي بالنهر (الغازاني الأسفل)، والثالث نهر

حفر من غرب الفرات، وامتد إلى الصحراء، وسمي بـ(الغازاني). عادل عبد الصالح الكليدار، كربلاء في العهد المغولي «الإيلخاني» ٦٥٦-٧٣٦هـ، مجلة الأقلام، الجزء التاسع، السنة الرابعة، صفر ١٣٨٨هـ/ أيار١٩٦٨م، ص١٢٦.

(١٠) عبد الله بن فتح الله البغدادي (المعروف بالغياثي)، تاريخ الدول الإسلامية في الشرق، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ٢٠١٠م، ص٥٥.

(١١) ولعل هذا النهر هو فرع من النهر الغازاني، أوصل فيه الماء إلى مشهد الشيخ أبي الوفاء، وسمي بالنهر الغازاني جعفر حسين خصباك، أحوال العراق الاقتصادية في عهد الايلخانيين المغول، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد الرابع عشر، السنة١٩٦١م، ص١٢٠.

(١٢) الكليدار، المصدر السابق، ص١٢٦.

(١٣) مؤيد جواد بهجت، مدينة كربلاء: دراسة في جغرافية المدن، رسالة مقدمة للحصول على درجة الماجستير من جامعة عين شمس، كلية الآداب، قسم الجغرافية، القاهرة، ١٩٨٠م، ص١٦.

(١٤) عبد الرزاق الحسني، كربلاء، مجلة الدليل، العدد الأول والثاني، السنة الثانية، النجف: ذي القعدة ١٣٦٦ هـ الموافق أيلول ١٩٤٧م، ص١٤٢.

(١٥) لونكريك، المصدر السابق، ص٣٩؛ ينظر أيضاً: محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الصفوية في إيران، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص٩٥-٩٨.

(١٦) رؤوف الأنصاري، كربلاء، مجلة الموسم، العددان (٣٥-٣٦)، ١٩٨٨م/ ١٤١٩هـ، ص١٤٢.

(١٧) جريدة الزوراء، العدد ١٥٩ يوم السبت ٦ جمادى الآخرة١٣٠٢هـ.

(١٨) لونكريك، المصدر السابق، ص٣٩، وحول هذه الحالة ينظر أيضاً» سوسة، المصدر السابق، ج٢، ص٣٣٤؛ بهجت، المصدر السابق، ص١٥.

(١٩) نظمي زادة مرتضى أفندي، كلشن خلفا، نقله إلى العربية موسى كاظم نورس، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٧١م، ص٢٠١.

(٢٠) لونكريك، المصدر السابق، ص٣٩.

(٢١) تاريخ العراق بين احتلالين، الجزء الرابع: ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م: ١٠٤٨هـ-١٦٣٨م، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م، ص٣٦-٣٧.

(٢٢) عباس العزاوي، تاريخ العراق بن احتلالين، ج٤، ص٣٦-٣٧.

(٢٣) مرتضى أفندي، المصدر السابق، ص٢٠٠.

(٢٤) يعقوب سركيس، مباحث عراقية، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م القسم الثاني، ص٥٨-٥٩. ومما ذكره سركيس أن البارة في ذلك الزمن هي غير البارة المعروفة في العهد العثماني الأخير، وهي من النقود الفضية الصغيرة، إذ كانت تضرب في بغداد في عام ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م على هيئة نقود ذهبية وفضية. المصدر نفسه، ص٥٩.

(٢٥) جريدة الزوراء، العدد ١٢٠٩، لسنة ١٩٢٩م ليوم السبت- جمادي الآخرة١٣٠٢هـ.

(٢٦) بهجت، المصدر السابق، ص١٦.

(٢٧) في الأصل (مراد) والصواب ما أثبتناه.

(٨٢) أي (نهر الهندية) الحالي.

(٢٩) رحلة أبي طالب خان إلى العراق وأوربا، ترجمها من الفرنسية إلى العربية الدكتور مصطفى جواد، دار الوراق للنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٧م، ص٢٧٤.

(٣٠) هذا الفرع الذي يطوق مدينة كربلاء من ثلاث

جهات ويسقي أهلها وكان مساره قريباً من السور هو (نهر الهندية)، وهذا الفرع من نهر الحسينية قد حفر قبل أن يحفر نهر الرشدية، الذي أخذت مياهه تصل إلى القرب من مرقد الحر الرياحي، ويستمر بالجريان إلى أن تصب نهاياته في منخفض هور أبي دبس الذي تشكلت عنه بحيرة الرزازة فيما بعد.

(٣١) رحلة أبو طالب خان، الترجمة الفارسية، نقلاً عن السيد عبد الصاحب ناصر آل نصر الله، كربلاء في أدب الرحالات، مؤسسة البلاغ، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ص١٢٥، هذا وقد أورد عبد الحسين الكليدار آل طعمة النص نفسه، ينظر مؤلفه بغية النبلاء في تاريخ كربلاء، مطبعة الرشاد، بغداد، ١٩٦٦م، ص٩٩.

(٣٢) العراق في مشاهدات ناصر الدين شاه، رحلة سيف الدولة إلى العراق ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م، ترجمة وتعليق محمد الشيخ هادي الأسدي، مؤسسة آفاق للدراسات والأبحاث العراقية، مطابع شركة مجموعة العدالة للطباعة والنشر والتوزيع، د.م، ط١، ٢٠١١م، ص٩٤؛ ينظر أيضاً: ناصر آل نصر الله، المصدر السابق، ص١٨٩.

(٣٣) رحلة آينهولت الهولندي إلى العراق سنة ١٨٦٦-١٨٦٧م، ترجمة مير بصري، دراسة وتعليق وتقديم طارق نافع الحمداني، دار الوراق للنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٢م، ص٢٤٥-٢٤٦.

(٣٤) العراق في مشاهدات ناصر الدين شاه، ص١٥٣.

(٣٥) المصدر نفسه، ص١٥٤.

(٣٦) ناصر آل نصر الله، المصدر السابق، ص٢٨٤-٢٨٥؛ مجلة لغة العرب، الجزء الثامن عن صفر ١٣٣٠/ شباط١٩١٢، ص٣٢١؛ المصدر نفسه، الجزء الثامن من السنة ٢ ربيع الأول سنة ١٣٣١هـ/ شباط ١٩١٣م، ص٣٦٠.

(٣٧) جريدة الزوراء، الثلاثاء ٢٣ ذو القعدة ١٢٩٥هـ.

(٣٨) جريدة الزوراء، ٢٢ ذو الحجة ١٢٩٩هـ.

(٣٩) جريدة الزوراء، العدد١٠٦٣، الثلاثاء ١٧ محرم ١٣٠٠هـ.

(٤٠) جريدة الزوراء، العدد ١٠٤١، السبت ١٤ شوال ١٢٩٩هـ. ومما يذكر أن نهر الحسينية وفروعه كانت تجري فيه عملية كري النهر عن طريق ما يعرف بـ(الفزعة)، أي التناخي للقيام بعمل ما، حيث يقسم العمل فيه بما يعرف بـ(الطُرح) أي تقسيم العمل إلى أجزاء متساوية.

(٤١) البشلك أو بشلغ، وهو نوع من أنواع النقود العثمانية وهو يعادل خمسة غروش صحيحه، وقد ضرب ببغداد سنة ١١٤٣هـ. عباس العزاوي، تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية (من سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م إلى سنة ١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م)، شركة التجارة والطباعة، بغداد، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م، ص١١٧.

(٤٢) جريدة الزوراء، العدد ١٠٥٦، ليوم السبت ٢٢ ذي الحجة ١٢٩٩هـ.

(٤٣) جريدة الزوراء، العدد ١٠٥٩، ليوم الثلاثاء، ٣ محرم ١٣٠٠هـ.

(٤٤) جريدة الزوراء، العدد ١٠٦٣، ليوم الثلاثاء ١٧ محرم ١٣٠٠هـ، ويبدو بأن هناك متابعة واضحة للوالي وتفقده للمشروع، وتوجيه العمل فيه إلى ذوي الاختصاص.

(٤٥) جريدة الزوراء، العدد ١٠٦٣، ١٧ محرم ١٣٠٠هـ.

(٤٦) جريدة الزوراء، العدد١٢٩١، الخميس ٦ ربيع الأول ١٣٠٤هـ.